

مباركة هي فاطمة

وإذا كان الموت وتطاول السنين يسلب
الإنسان - أيًا كان - وهج الاسم وبريق
الوجود، فإن الأمر على خلاف ذلك فيما
يخص سيّدة أهل البيت عليهم السلام.
فما تزال فاطمة النموذج الذي قدّمته
السماء للمرأة والمثال الذي نحته الإسلام
ونفخ فيه من روحه.

وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وهو يتحدث عن
حورية الأرض؛ إنما يريد أن يكشف عن
الجزء السماوي في تكوين فاطمة... الجزء
الذي باركه الله وطهره تطهيرا.

لقد اصطفى الله مريم ابنة عمران، وقدّمها
سيّدةً لنساء عصرها.. واصطفى فاطمة ابنة
محمد ليقدمها سيّدة على مدى كلّ العصور..
منذ ميلادها والى آخر أنثى في تاريخ
الإنسان تبقى فاطمة السيّدة الأولى.. حورية
الأرض لأهل الأرض، والفتاة التي بلغت
ذروة الكمال الإنساني في طريق بنات حواء.
كانت رمزاً للعفة والطهر، وشعاراً للرقّة
والعطف، ونموذجاً للأئمة والخصب..
وكانت معلماً للإنسان..

ليست بداية

الميلاد هو ليس لحظة البدء في حياة
الإنسان.. إنه بداية فصل جديد في تاريخه،
وما قبل ذلك إرهاصات وجذور.. إرهاصات
تشبه مخاض السحب قبل أن تنهمر غيثاً

الأستاذ كمال السيّد

المقدمة

لم يفرز التاريخ الإسلامي اهتماماً كما
أفرزه من اهتمام بالسيدة فاطمة الزهراء، ولم
يتعامل بإجلال مثلما تعامل مع تلك السيدة
الفريدة؛ حتى ظلّ اسمها وسيرتها فصلاً
متألقاً في الذاكرة الإسلامية.

يُذكر اسمها فتتجسد كل معاني التبتّل
والطهارة والنقاء، ويرد ذكرها فتتمثل كلُّ
خصال الأنوثة من رقّة وحشمةٍ وحياء.

عاشت في الأرض..

ظهرت في سماء الإسلام كوكباً مضيئاً،
وغابت شمساً وقمرًا.

فاطمة.. النموذج والمثال.. نموذج المرأة الكامل.. ومثال الإنسان عندما يكون أنثى.. من أجل هذا كان محمد صلى الله عليه وآله عندما يشتاقي إلى الجنة يقبل فاطمة.. يشم أريج الزهراء.. فيها رائحة الجنة.. نكهة التفاح، وعبير السفرجل وطيب النخيل؛ وفيها لكل الثمار الخالدة^(١) حضور في ذلك الكائن الرقيق.. الذي تجسد في فاطمة..

لؤلؤة في الأعماق

وتدب الحياة في أحشاء الرحم.. وتتألق فاطمة في قلب الظلمات الثلاث كلؤلؤة مخزونة بالبريق السماوي.
بدأت فاطمة تنمو كلؤلؤة في حنايا صدفة؛ تألفت فاطمة جنيناً.. خفيفاً شفافاً مليئاً بالنور.. حملاً مباركاً..

كانت خديجة تحسه.. تستشعر السعادة فيه.. فاطمة في قلب خديجة.. في روحها.. لؤلؤة نقية في حنايا صدفة مليئة بالنور..

وينمو الجنين.. ومن أعماق الرحم تسمع خديجة جنينها يتحدث.. كلمات طفولية تبدد وحشة القلق عن أم ما لها من قرار.. عن زوجة عصفت بزوجها النوائب والأيام تريد أن تطفئ النور القادم من أغوار السماء.

خديجة خائفة قلقة حزينة، فتقول فاطمة بلغة فيها طهر الأجنة المباركة: يا أمها! لاتخزني.. إن الله مع أبي^(٢)!

ومطرا.

وفي حياة الزهراء فاطمة.. أسرار اكتشف الضمير الإنساني بعضها، وظل البعض الآخر في غياهب المجهول.. مثل لؤلؤة في صدفة في قعر بحيرة راتقة.

ويحار المرء وهو يبحث عن بدء فاطمة.. عن البداية والجذور.. عن إرهاصات ذلك الحضور الأنثوي.. لسيدة كل امرأة في التاريخ.

وحده محمد صلى الله عليه وآله يعرف سر فاطمة.. وحده يعرف أسرار تلك السيدة.. يعرف البداية والظهور.. يعرف الجذور.

من ثمر في الجنة كانت البداية.. من تفاحة وسفرجلة ومن كل ما أنبتت تلك البقاع الخالدة في عالم بعيد.. عالم لم يكتشفه سوى الأنبياء.

من هناك جاءت فاطمة.. حورية إنسية، إنها فتاة من الجنة.. أو حورية من أهل الأرض.. هكذا قال محمد صلى الله عليه وآله.

في زمن الإسراء ولدت الزهراء.. في لحظات بعيدة عن الأرض بكل انشدادها.. بعيدة عن المادة بكل ثقلها.. هناك انعقدت نطفة لمولود سيولد في الأرض..

فالعناصر التي كوَّنت فاطمة سماوية وأرضية..

كائن طيني مضمخ بعبير جنات الفردوس. عناصر مستها السماء بالنور، فكانت

المباركة

أطلت لحظات الميلاد.. آن لفاطمة أن تتألق في السماء الدنيا، آن لحورية الأرض أن تولد.. أن تدبّ في الحياة لتبدأ رحلة العمر في كوكب الحوادث.. في الكوكب المفعم بالحياة.

وقال الأب العظيم للأم وقد بدأت آلام المخاض: هذا جبريل يبشرنى أنها أنثى^(٣).. أمّا لأحد عشر^(٤) كوكباً.

وفي ذلك الصباح المفعم بالأنوار.. كانت حجرة خديجة زاخرة بالسلام.. هدوء وسكينة.. وفرحة وانتظار.. فاطمة تطرق أبواب الدنيا..

وخديجة وهي تنوء بآلام المخاض تفكّر.. تفكّر فيمن تستدعي من القوابل.. وعلى من ترسل من نسوة مكة؟

وفي لحظة مليئة بالنور زاخرة بأجنحة الملائكة ولجت الحجرة نسوة أربعة^(٥) قدمن من أعماق التاريخ..

نسوة طاهرات وسيّدات ما خلق الله أفضل منهن، جئن لمباركة خديجة.. ستولد سيّدة النساء^(٦).. لها تسعة أسماء^(٧).

قالت امرأة أنجبت في الأرض الأجيال البشرية.. امرأة تحملت آلام الميلاد البشري على سطح الكوكب.

قالت: أنا أمّك حواء..

وقالت امرأة تحملت آلام الايمان.. آلام

مواجهة الفرعون.. امرأة امتلأ قلبها بالنور
قالت: أنا آسية.

وقالت امرأة ثالثة: أنا كلثوم أخت موسى..
موسى ابن عمران.

وقالت السيّدة الرابعة: أنا مريم.. أم
المسيح عيسى.. أنا العذراء البتول..

قالت سيّدات التاريخ: جئننا لنلي من أمرك
ما تلي النساء^(٨).. جئننا نبشرك بميلاد
فاطمة.. سيّدة السيّدات.

وامتلأت حجرة خديجة بالنور.. وعبير
الجنة يدور في الفضاء؛ يملأ الصدور بالرضا
والسعادة..

وفي لحظة مفعمة بالألم المقدّس
والعذابات.. عذابات المخاض والميلاد
ظهرت لؤلؤة الجنة طاهرة مطهّرة..

ولدت فاطمة ساجدة.. رافعة إصبعها: إن
الله واحد لا شريك له^(٩)..

وظهرت حوريات عشر يحملن الأباريق
والمناديل البيضاء^(١٠)..

وترقرت مياه الكوثر من أباريق الجنة
تسكبها أياد بيضاء لفتيات لم يطمئنهن إنس
ولا جان..

وقالت حواء: خذيها يا خديجة طاهرة
مطهّرة زكية بورك فيها وفي نسلها.

وفي اللحظة التي وضعت فيها خديجة
حلمة الثدي في فم دقيق، تفجّرت ينابيع
الأمومة كأقوى ما تكون..

- (١٢) بحار الأنوار ٤٣، ٤٦.
- (١٣) تاريخ بغداد ١٣، ٣٣١، القاهرة. ذخائر العقبي، ٢٦. كنز العمال ١٣، ٩٤، حيدرآباد. رشفة الصادي، ٤٧، مصر. أرجح المطالب، ٢٤٠ - ٢٤٥ / لاهور. الفيض القدير ١، ٢٠٦، القاهرة. وسيلة المآل، ٧٨، دمشق. إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الابصار، ١٩١، مصر. جواهر العقدين، ٣٩٧، إسلامبول.
- (١٤) كنز العمال ١٣، ٩٤، حيدرآباد. تاريخ بغداد ١٣، ٢٣١، القاهرة. الفيض القدير ١/٢٠٦ / القاهرة. ينابيع المودة، ١٩٤، إسلامبول.
- (١٥) الرياض النضرة ٢، ٢٠٢ شرف النبوة وفيه: ان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله قال لعلي: «أوتيت زوجة صديقة مثل أبتني ولم أوت مثلها زوجة».
- (١٦) علل الشرائع، ١٨٤.
- (١٧) بحار الأنوار ٤٣، ٤١٠.
- (١٨) تاريخ بغداد ١٠. المستدرک ٢، ٤١٦. ينابيع المودة، ٢٢٩، ١٩٣. سير أعلام النبلاء ٣ / ٢١٢. أسد الغابة ٥ / ٥٢١. تاريخ الذهبي ٢ / ٩٧. شواهد التنزيل ٢، ١١. أنساب الأشراف ١، ٢١٥. تفسير الرازي ٦ / ٧٨٣. البداية والنهاية ٨، ٢٠٥. ذخائر العقبي ٢٢ / ٢٢٠.
- (١٩) ينابيع المودة / ٢٦٠ / إسلامبول. المناقب المرتضوية / ١١٩ / بومباي. مودة القربى / ١٠٣ / لاهور.
- (٢٠) الصواعق المحرقة، ٧٤، ينابيع المودة، ١٨٣. المناقب للخوارزمي / ٢٢٩.
- (٢١) أمالي الصدوق، بحار الأنوار ٤٣، ١٧.
- (٢٢) بحار الأنوار ٤٣، ١٠.
- للمسقلاني ٤، ٣٦، حيدرآباد الدكن. تاريخ بغداد لأبي بكر البغدادي ٥، ٨٧، مصر. نظم درر السمطين للزرندي، ١٧٧. مجمع الزوائد للهيتمي ٦، ٢٠٢، القاهرة.
- (٢) نزهة المجالس ٢، ٢٢٧، القاهرة. ينابيع المودة، ١٩٨، إسلامبول. تجهيز الجيش للمولوي، ٩٩. الروض الفائق، ٢١٤، القاهرة.
- (٣) بحار الأنوار ٤٣، ٢.
- (٤) تجهيز الجيش، ٩٩.
- (٥) ذخائر العقبي، ٤٤، مصر. وسيلة المآل، ٧٧، دمشق. نزهة المجالس ٢، ٢٢٧، القاهرة. ينابيع المودة، ١٩٨، إسلامبول.
- (٦) مسند الطيالسي، ١٩٦، حيدرآباد. الطبقات الكبرى لابن سعد ٨، ٢٦، بيروت. خصائص النسائي، ١٢٤، مصر. جواهر البحار للنبهاني ١، ٣٦٠، القاهرة. الاستيعاب لابن عبد البر ٢، ٧٥٠، حيدرآباد. حلية الأولياء ٢، ٣٩، مصر. مصابيح السنة للبغوي ٣، ٢٠٤، مصر. تاريخ الذهبي ٢، ٩٤، مصر. الإصابة للعسقلاني ٤، ٣٦٧، مصر. كنز العمال ١٣، ٩٥، حيدرآباد. صلح الإخوان للنقشبندي الخالدي، ١١٦، بومباي. الروض الأزهر للحنفي، ١٠٣، حيدرآباد. ينابيع المودة، ٢٦٠، إسلامبول.
- (٧) بحار الأنوار ٤٣، ٢.
- (٨) نزهة المجالس ٢، ٢٢٧، القاهرة. وسيلة المآل، ٧٧، دمشق.
- (٩) ينابيع المودة، ١٩٨، إسلامبول.
- (١٠) بحار الأنوار ٤٣، ٢.
- (١١) تاريخ بن عساكر ١، ٢٩٣، دمشق. البداية والنهاية ٥، ٣٠٧، مصر.